



كان لا يزال منجذبا إلى أضواء الثورة السورية التي اعتبرها مباركة وذات أبعاد مشرقة تأتي كل يوم بمنافع لم يكن يحلم بشيء منها قبلها حيث الظلام الدامس والقهر المجنون والاستبداد والاستعباد من فرعون وهامان وجندهما الخاطئين. وكان رغم المبشرات المتتابعة لا يستطيع أن يهدأ أو يغط في نوم مريح، فجيش الأفكار والخواطر والتقلبات التي تمكر بالثورة ليل نهار يجعله نهبا لشيء من القلق والحيرة حتى إنه يمسك قلبه الخافق كلما حانت ساعة نشرة الأخبار إشفاقاً أن تأتي بما لا يسر من المأساة الجسم التي عصفت ولا زالت بالشعب السوري الصابر المصابر المصطبر بلا حدود.

وإذ هو في هذه الحالة المضطربة شيئاً ما رغم بعض الانتصارات الفعلية التي تزيح الكثير من الهموم والغموم، فكر مازا عليه أن يفعل إنه يريد أن يقف على الحقيقة أكثر وأكثر ليستجلي المشهد وأنى له ذلك وهو بعيد وغير متكر إلا على الأنبياء الفضائية أو الإعلام المقاوم أو السماع من زيد وعمرو وبكر نقاً أو تحليلاً، ولأن الشك فيه عذاب واليقين هو الروح والريحان فقد قرر اليوم أن يدخل بنفس حلة الميدان ويرى ويسمع ويحلل ويمدح ويقدح وينتقد بإخلاص طلباً للحق، ويكون أميناً مع نفسه وضميره عساه يشرح ويذيل شبح التردد القاتل عنه.

كان انطلاقه مع إخوة صادقين بعد أن تمكن من زيارة أحد المخيمات الحدودية مع تركيا وقد سر أيماء سرور حين شعر وهو يرى ويسمع أحوال المهجرين بارتفاع المعنويات التي تسابق الريح عند الكثرين رغم العناء والتشرد فاللغمة التي يضرب هؤلاء على وترها إنما ترکز على استعلاء الإيمان ومعاني الكرامة والعدالة والحرية والتي تهزاً بالصعاب غير المحتملة في سبيل تلك المعاني التي عدلت واضمحلت جداً منذ الديكتاتور حافظ الأسد ثم عهد الديكتاتور الصغير بشار المستبد الذي حاز كأبيه أعلى درجة اليوم في القتل والإجرام دون رادع من دين أو ضمير أو خلق سوي.

لقد وصلت المركبة الحدود التركية وختمت الجوازات ثم وقفت عند الحدود السورية فإذا به ينزل منها ويخر ساجداً لله تعالى شكرًا على ما أولى وأنعم ولم يرفع جبهته وهو مستغرق في الخشوع وعشق الوطن الذي لم يمس ترابه منذ أربعة وثلاثين عاماً إلا بعد وقت طويل، يا لها من لحظات تعدل كل ما لديه في الدنيا حيث يدور شريط الذكريات في السجود عند الحدود هل هو في حلم أم حقيقة؟

هل يمكن أن يعتبر هذا اليوم عيداً جديداً في حياته؟ إذ كان يشعر كما الملائكة الآخرين بأنه كان قشة تذروها الرياح. كيف أحس أنه كالجبل في مكانه وأن شانئه ليس إلا كالعنكبوت؟ يا لها من فرصة ونشيد قلبي يحن للنور بعد نير الديجور أين الجبروت والتماثيل واللافتات التي كان يكتب عليها: الأسد إلى

لقد خر الباطل وتهاوى بعد أن فتك بأهل العلم والفكر واعتدى على ربات الخدود وجعل الناس عبيداً أمام توحشه السادس. وحين يبغي على الأحرار والحرائر والضعاف نزو الطغيان يصبح العيش مستحيل الوجود. وأنى للوجود أن يكون وبيوت الله تدنس والمصاحف تمزق وتحرق ويقال عليها، إن الوطن جنة الدنيا مع الكرامة وهو جهنم الدنيا بلا حرية وكرامة.

لا شك أنه شعر بالاكتئاب أثناء سجوده من مشهد الماضي الأليم ولكنه مسحه بالأمل والرجاء والتفاؤل حين وجد نفسه داخل وطنه الحقيقي وحياة أفراد الجيش الحر بكل ترحاً وفلاحة درهم ما أعظمهم وما أبلهم إن الفرق شاسع جداً بين ما كان الناس فيه وما آلو إلية وهذا أمر الله في عباده.

وحين التقى بالمجاهدين في كل ساحة وحي وزقاق وهم يتواشون أسلحتهم ويستمعون إليه وهو أحق أن يستمع إليهم أدرك أن هذا الشعب قوي وصامد وعزيز وحالف فوهبواه بعض ما لديهم فرقى في سماء العز ونشوة النصر، إن كل حواجز النظام الأسدى في ريف حلب قد دمرت ورحلت إلى غير رجعة وها هي المدن والمناطق والتواحي تزغرد بنشيد الدم الذي طهر الأرض من المفسدين.

لقد رأى خراباً واسعاً ولكنه رأى النفوس عامرة واثقة بالنصر ولما دخل حلب الشهباء ما كان يتصور أن هذه المدينة الاقتصادية الكبرى برصانتها، ورونقها ستصبح أشبه بمدينة أشباح.

وهكذا يفعل الحقد فعله بعدها ظن أنها توازن الظلم ولكنه قلب كفيه وعرف حقيقة ظنه، وفي الجانب المقابل رأى صديق المجاهدين كيف هم يعيشون وكيف غلت لذة تحرير العديد من الأحياء على المصاب بالأرواح والممتلكات جراء قصف الطيران العشوائي، وهو لن ينسى أثره حين سلط على مشفى البيان في حي الشعار وجيء بالجرحى ذوي المشاهد المؤلمة حقاً إذ سقط برميل البارود على العمارة المجاورة وكان ما كان وشاء الله أن يعين الأخ إخوانه الجرحى بالدواء المفقود وأن ينصرف ظاناً أن الأمر قد انقضى فإذا بالأخبار تسرع بعد أيام إلى أن المشفى قصف وقصف بجنبه حتى أصبح الذين هم فيه من أطباء وجرحى أثراً بعد عين.

إن كل جولة في أحيا حلب المحررة تزيدك إيماناً وإصراراً على الثبات سيما ما رأه من الآليات والدبابات والمدرعات المدمرة والأخرى التي غنمها الجيش الحر وما رأى من اندحار جنود الظلام الذين رضي بعضهم أن يكون بشار لهم رباً، ومما أكرمه الله به من المشاهد أن رأى أسرى المقاتلين والشبيحة المجرمين في سجون الجيش الحر، وأن يكون أحد العقداء منهم يتسلل بذلك حتى كاد يقبل الأقدام للتتوسط بإطلاق سراحه ناسياً ما فعله بالأحرار وأن يعترف الشبيحة بما جنوه من قتل وحرق واعتداء فعلي على النساء والشيوخ والأطفال، فهل ستعود حلب وريفيها إلى ما نرجوه بعد الحسم والنصر على الظالمين.

لا ريب أن وعد الله لن يخالف وأن الأحرار بإيمانهم وسواعدهم سيحققون ذلك قريباً بعون الله، وماذا يقول صديق المجاهدين وقد نقلته الأقدار إلى ريف إدلب وشارك في تشييع الشهيد هناك بعد قصف قلعة حارم حيث اشتد الأمر بعد ذلك وقتل أكثر من عشرين شهيداً.

لقد شم رائحة المسك فقبل فرحاً وقبل العديد من شباب القرية ذلك الجسد الطاهر وعاهدوا الله أن يسيراً على نهجه وعبثاً يظن الظالمون أنه إذا تفاقم قمعهم فإن الثورة ستخدم ويقضى على العصابات المسلحة كما يدعون لكنهم عرفوا كم ازدادت هيجاناً وتطوراً بدماء الشهداء، ماذا عساه أن يقول ويكتفي أنه أيقن بعد الذي رأى بعينه وقلبه أن هذه الثورة هي من صنع الله وأنه لن يقهرها أحد لا المجرم بشار وذريته ولا من يدعونه ويشتركون في قتل وتشريد أبناء شعبنا كما أنه مهما أرادت الصهيونية أن تحقق حلمها لإبقاء الجزار ونظامه فإن الحق غالب وإن جنوده المؤمنين منتصرون.

لقد قالها صديق الثوار بكل فخر وعز ويقين الحمد لله الذي دفعني إلى حلبة الميدان فعرفت مالم أكن أعرف وزال القلق والاضطراب فالثورة ماضية حتى إسقاط المجرمين وخصوصا بعد الانتصارات النوعية التي أحرزها المجاهدون في كلية المشاة وغيرها في حلب وكذلك الكتائب والأفواج والمطارات الأسدية حول دمشق والصراع في داخلها، فالننزل إلى الميدان قدر استطاعتنا فإنه من ذاق عرف.

المصدر: رابطة العلماء السوريين

المصادر: